مجلة كلية الآداب.جامعة الإسكندرية ،المجلد ٧٣ ، العدد ١٠٩ ، يوليو

الكلمة القرآنية بين الثبات والتحول

Quranic Words Between Stability and Transformation

古兰经词汇的稳定与转变

أ.د. مجدي محمد حسين

Magdy Mohammed Hussein

Email: dmagdy_hussein@hotmail.com

٢٠٢٢م

ملخص البحث

أردنا من هذا البحث إثبات أن الكلمة القرآنية تتسم في بعض الأحيان بعدم ثبات معناها، بل يتحول ويتغير حسبما يحتم السياق، ويلزم التركيب خلافًا للمعهود معجميًا من أن اللفظة وضعت لمعنى لا تخرج عنه لئلا تلتبس المعاني، وهذه الظاهرة تنسحب على أقسام الكلمة العربية اسمًا وفعلًا وحرفًا كما نوه البحث.

الكلمات المفتاحية:

الوجوه والنظائر – الأسماء – الأفعال – الحروف

Abstract

I wanted to prove through this research that the Quranic word is sometimes characterized by its variable meaning. However, changes and varies as the context requires and as the structure needs different to what is usual in lexicography though the word is chosen for a certain meaning which can't mean another in order not to mix meanings up. This phenomena applies to kinds of Arabic words (lexemes); whether they are names, verbs or letters as was mentioned before in the research.

Key words:

Homonyms, Nouns, Verbs, Letters

مقدمــة

تتسم اللفظة القرآنية في بعض الأحيان بعدم الثبات فلا تستقر على معنًى بل يتغير من موضع لآخر وفق السياق الذي ترد فيه لدرجة أن يكون للفعل معنى ومعنى آخر مضاد له، والذي قد ينظر إليه في غير القرآن على أنه نوع من قلق اللفظة في مكانها، فالأصل أن اللفظة لها معنًى متفق عليه لا يتغير ولا يتحول على هذا الحال.

من هنا أنشأوا درسًا من دروس البلاغة سُمي بالوجوه والنظائر وهو ذات صلة بالتفسير، ومعناه أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بها في كل مكان معنى غير الآخر، فالنظائر خاصة بالألفاظ في حين أن الوجوه خاصة بالمعاني.

والتقسيم التقليدي للكلمة هو تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف، وفي ضوء هذا التقسيم نتناول هذه الظاهرة.

أولًا- الأسماء:

(١) المحصنات:

ورد هذا الوصف في القرآن في ستة مواضع: (**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**) (النساء: ٢٤)، (**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**) (النساء: ٢٥)، (**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**) (النساء: ٢٥)، (**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ**) (المائدة: ٥)، (**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ**

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) (المادة: ٥)، (**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ**) (النور: ٤)، يختلف المعنى حسبما يحتمه السياق، بل يختلف من مفسر لآخر رغم أن الكلمة واحدة واللفظ واحد لم يتغير، فالمعنى متغير رغم أن اللفظ واحد، فقد وردت لفظة **(المحصنات)** بثلاثة معانٍ: (**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**): قالوا هي الحرائر بدليل (**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**)، ثم تكررت اللفظة بذات الآية ولكن بمعنى مخالف **(محصنات)** أي: عفائف بدليل (**غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ**)، (**فَإِذَا أُحْصِنَّ**) هنا المعنى مختلف للمرة الثالثة أي: تزوجن كما قالت الآية الأولى (**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**) أي: المتزوجات، فعجيب أن يتكرر هذا الجذر بالآية نفسها بمعانٍ ثلاثة رغم وجود البديل والمرادف الذي يفسر به اللفظة.

بل اختلفوا في معنى اللفظة في الموضع الواحد رغم وجود السياق ففي قوله: (**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**) (النساء: ٢٤) قال ابن عباس وغيره: المراد بهن المسبيات ذوات الأزواج، وفي رأي ثالث منقول عن مجاهد: ذوات الأزواج من المسلمين والمشركين، وقال علي بن أبي طالب: ذوات الأزواج من المشركين.

هكذا قد يراد بالمحصنات المتزوجات أو العفائف أو الحرائر حسب السياق وحسب رأي المفسر.

(٢) الأُمة:

والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا وجمعها أمم. (مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني)

قال تعالى: (**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**) (آل عمران: ١٠٤)، (**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**) (البقرة: ١٢٨)

هذا هو المعروف عن معنى الأمة والمستعمل كذلك والراسخ في الأذهان، إلا أن هذه الكلمة وردت في القرآن وحتم السياق أن يكون معناها مخالفًا للمعروف والمسلم به، بل والمستقر عليه في المعاجم نحو: (**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**) (يوسف: ٤٥)، أي بعد حين، وقرئ بعد أَمَة، والسياق كما أشرنا يلزم أن يكون المعنى كذلك فلا يستقيم أن يتذكر هذا الذي نجا منهما بعد جماعة أو بعد طائفة، فلماذا لم تقل الآية (وادكر بعد حين) أو (بعد نسيان)؟ وعد بعضهم ذلك من المشترك اللفظي لكنه من المشترك الخاص بالقرآن بخلاف هذا الذي يحدث نتيجة استعمال كل قبيلة للفظة الواحدة استعمالًا مخالفًا من جهة المعنى فينتج عنه هذا المشترك كلفظة الخال وهو أخو الأم وتستعمله قبيلة بمعنى الشامة في الوجه، أما استعمال لفظة أمة بمعنى: حين وفترة وبرهة، فليس معروفًا في لغة العرب حتى ولو تصيدوا له الشواهد.

ومن الاستعمال الخاص لهذه اللفظة (أُمة) والذي يمثل تحولًا وعدم ثبات لمعنى الكلمة قوله (**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**) (الزخرف: ٢٢) أي على دين وملة، وهو معنًى غريب للكلمة فرضه النص.

الآيــة:

وهي طائفة من القرآن مركبة من جُمل ولو تقديرًا، ذات مَطلع ومَقطع مندرجة في سورةٍ من القرآن، قال تعالى: (**وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ**) (الجاثية: ٧ – ٨)، وتأتي بمعنى المعجزة وهذا المعنى يفرضه السياق (**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى**) (طه: ١٩– ٢٣)، (**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**) (الإسراء: ٥٩)، وبمعنى العلامة (**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ**) (الأنعام: ١٥٨)، (**قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**) (آل عمران: ٤١)، وبمعنى العبرة (**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**) (يوسف: ٧)، وبمعنى الأمر

والنهي (**سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) (النور: ١) (شبكة الألوكة: بتصرف).

الدِيــن:

هو الديانة واسم لجميع ما يعبد به الله والمِلة والإسلام والاعتقاد بالجَنَان والإقرار باللسان و عمل الجوارح بالأركان: (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**) (النساء: ١٧١)، (**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ**) (آل عمران: ٨٣)، واستدعى السياق القرآني أن يرد هذا اللفظ بمعانٍ مغايرة من نحو: السيرة، والعادة، والطاعة، والحال، والشأن، والورع، والحساب، والملك، والسلطان، والحكم، والقضاء، والتدبير.

ولعل أغرب استعمال لهذه الكلمة (الدين) أن تكون بمعنى الحساب نحو (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) (الفاتحة: ٣)، (**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**) (الحجر: ٣٥)، (**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**) (الشعراء: ٨٢)، وأحسب أن بين الدين الذي هو الملة والاعتقاد وبين الحساب بونًا شاسعًا وربما هان الأمر لو كان دَينًا يسدد في هذا اليوم، ويبدو أن طبيعة اللفظة المنتهية بالياء والنون والتي أهلتها أن تكون رأس آية فرضت هذا الاستعمال المختلف وإلا كان يوم الحساب والجزاء أولى وأدق.

الـروح:

هـي تلـك القـوى الخفيـة المحركـة للبـدن، هـذا هـو المعنـى اللغـوي والمتفق عليه لكلمة (الروح) ولكنها وردت في القرآن في مواضع وسياقات يمتنـع معها أن يكون المعنـى كذلك، فسمي عيسـى بـ (الروح) فـي قولـه: (**وَرُوحٌ مِنْهُ**) (النساء: ١٧١)، وسمي القرآن (روحًا) في قوله: (**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ رُوحًـا مِـنْ أَمْرِنَـا**) (الشورى: ٥٢)، وسمي بـه جبريل (**يَـوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا**) (النبأ: ٣٨) ولها معنًى آخر على قراءة من قرأ (فرُوح) بضم الراء من قولـه: (**فَـرَوْحٌ وَرَيْحَـانٌ وَجَنَّـةُ نَعِيمٍ**) (الواقعة: ٨٩)، وهـي قراءة أبـي عمرو وابن عباس وعائشـة التـي قالت: قرأ النبـي صـلى الله عليـه وسلم: (فـروح) بضـم الـراء معنـاه: فبقـاء لـه وحيـاة فـي الجنة، وقالوا هي الرحمة.

مـن هنـا لـم يكـن مسـتغربًا ألا يتفقوا علـى معنـى الـروح مـن قولـه (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**) (الإسراء: ٨٥) جاء في "النكت والعيون" فيها خمسة أقاويل:

أحدها: أنه جبريل عليه السلام، قاله ابن عباس كما قال تعالى:(**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**) (الشعراء: ١٩٣).

الثاني: ملك من الملائكة لـه سبعون ألف وجـه، لكل وجـه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بجميع ذلك، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الثالث: أنه القرآن، قاله الحسن، كما قال تعالى: (**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**) (الشورى: ٥٢)، فيكون معناه أن القرآن من أمر الله تعالى ووحيه الذي أنزل عليّ وليس هو مني.

الرابع: أنه عيسى بن مريم هو من أمر الله تعالى وليس كما ادعته النصارى أنه ابن الله، ولا كما افترته اليهود أنه لغير رشده.

الخامس: أنه روح الحيوان وهي مشتقة من الريح.

ومعنى (الروح) عند الشيعة خلق أعظم من جبريل وميكائيل كان مع رسول الله، وهو مع الأئمة وهو من الملكوت، وهي حسب زعمهم تلك الروح التي يعطيها الله من شاء، فإذا أعطاها عبدًا علمه الفهم، بل قالوا إن المراد بالروح أمير المؤمنين علي.

الذكـر:

(**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**) (آل عمران: ٥٨)، (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) (الحجر: ٩)، (**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) (النحل: ٤٤).

وردت كلمة (الذكر) في عدة مواضع بالقرآن الكريم، ولم يكن المقصود بها بالضرورة في كل هذه المواضع القرآن –كما يشيرون– إذ يتعذر ذلك في بعض المواضع، وهذا ما دعاني أن أسأل: ما المقصود (بالذكر) في هذه الآيات؟

فمثلًا قال سبحانه: (**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**) (ص: ١) فلا يستقيم أن يكون المعنى: "والقرآن ذي القرآن"، وقال: (**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ**) (الأنبياء: ١٠)، ولا يستقيم كذلك أن يكون المعنى: "كتابًا فيه قرآنكم"، وقال: (**قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا**) (الطلاق: ١٠)، ثم قال بعدها (**رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ**) فعرف الذكر بأنه الرسول... إلخ.

كما قال تعالى في هذه الآية التي معنا: (**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**) (آل عمران: ٥٨)، فلا يلزم أن يكون الذكر هو القرآن وإلّا كان في الكلام تكرار.

وقد فسروا قوله تعالى: (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) (النحل: ٤٣) بأنهم أصحاب الكتب المتقدمة فالذكر ليس مقصورًا على القرآن؛ لذا قيل قد يكون المراد (بالذكر الحكيم) اللوح المحفوظ.

البعل:

هو الزوج أو الزوجة، قالت الآية على لسان سارة (**وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**) (هود: ٧٢)، وقالت أخرى: (**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا**) (النساء: ١٢٨)، من العجيب أن تأتي اللفظة في سياق آخر ولا يصلح أن يكون معناها الزوج (**أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**) (الصافات: ١٢٥)، وأقرب معنى أنه الصنم فكيف صار البعل زوجًا وصنمًا؟ فهي لفظة جاهلية ارتبطت بعبادة الأصنام وكانوا يدعون بعلًا أي: سيدًا وربًا؛ لذا لم يكن غريبًا أن يقول الحديث: «**لو كنت آمرًا أحدًا**

أن يسجد لأحدٍ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». من هنا تجد العلاقة بين البعل الذي هو الزوج والبعل الذي هو الصنم الذي كانوا يسجدون له.

المـولى:

المولى هو الرب: (**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**) (الأنفال: ٤٠)، (**أَنْتَ مَوْلَانَا**) (البقرة: ٢٨٦)، (**بِأَنَّ اللَّـهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا**) (محمد: ١١) ووردت اللفظة في سياقات أفادت خلاف هذا المعنى فيكون المولى فيها هو العبد الذي له سيد ورب، في الحديث: «**زيد أخونا ومولانا**»، والصحابي سالم هو مولى أبي حذيفة أي: عبده، والموالي هم العبيد.

فكان لابد أن يكون في العربية درس يسمى بالأضداد لينتظم مثل هذه المعاني المتناقضة بأن يكون للكلمة معنيان متضادان، منه كذلك **(الظن)** وهو عدم اليقين ولكنه ورد في القرآن في سياقات يحتم أن يكون معناه اليقين فصار من الأضداد.

ويسمى السيد كذلك بالمولى نحو: **وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ)** (النحل: ٧٦) أي سيده، فالمولى هو الرب، وهو كذلك العبد سواءً كان سيدًا أم من العبيد.

ثانيًا- الأفـعـال:

يرد الكثير من الأفعال في القرآن الكريم على نحو يختلف عن المعنى المتعارف عليه في المعاجم وفي كلام العرب وفي اللغة المعاصرة، بل وفي النص القرآني ذاته وكأنها لغة قرآنية خاصة، قد يكون غريبًا لو تكلمنا على نسقها لأن هذا المعنى يحدده السياق والملابسات من أسباب النزول والمقام، ولأن هذا المعنى يكون غالبًا مخالفًا للمعنى المتبادر إلى الذهن والمعروف عن هذه الأفعال، بل وربما نضطر إلى القول به لتوضيح السياق وفهم التركيب، وعلى هذا لا يُجدي المعجم في كشف معاني هذه الكلمة لأنها تكون معاني خاصة وتأتي في موضع آخر، ولنأخذ بعض الأمثلة: (**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**) (البقرة: ٤٦).

هذا وصف للخاشعين في الآية قبلها فهو بالضرورة وصف حميد وخصلة طيبة إذ يتنافى أن يوصف الخاشعون إلا بما هو طيب ومحمود، والظن كما هو شائع في اللغة المعاصرة واللغة القديمة تعني الشك وعدم اليقين وعدم التثبت غالبًا، بل وردت كذلك بهذا المعنى في الاستعمال القرآني في كثير من الآيات نحو قوله تعالى: (**الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ**) (الفتح: ٩)، (**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا**) (يونس: ٢٦)، (**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**) (الحجرات: ١٢)، وفي الحديث: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»، وفي النحو باب يسمى (ظن وأخواتها) وهي أفعال تفيد عدم اليقين؛ لذا يقف الباحث حائرًا أمام استعمال النص القرآني لهذا الفعل في كثير من الآيات، فلا يدري أهو للتثبت واليقين أم للشك والتردد خاصة وأن المعنى يحتملهما جميعًا؟

ودليل آخر أن المفسرين لم يقطعوا في معنى (الظن) في هذه الآية –على سبيل المثال– بقول حاسم رآه الزمخشري في الآية بمعنى (يتوقعون) والتوقع بالضرورة ليس فيه يقين وهو عند أبي عبيدة والزجاج بمعنى (التيقن)، لذا اضطروا أن يقولوا هو من الأضداد وهو اللفظ الواحد الدال على معنيين متضادين كالقرء للحيض، والطهر والجون للبياض والسواد، والسدفة للنور والظلام، وربما فرض الاستعمال القرآني هذا التصور وأوجبه لاحتمال ظاهر الآيات التي ورد فيها هذا الفعل بالمعنيين: (الشك واليقين) بشكل متساو وإن كنا نتوقع عدم وقوع هذه الظاهرة في النص القرآني لأنها –مهما يكن من الأمر– مدعاة للبس والخلط وقد وصف الله كتابه بالمحكم والمبين ولا تتفق هاتان الصفتان مع القول، بوجود مثل هذه الظواهر من أضداد ومشترك لفظي في النص القرآني على إطلاقه، حتى ولو مثلوا له بكلام العرب؛ ولذا اضطروا أن يقولوا كذلك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك، ومنه في القرآن كذلك: (**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**) (الحاقة: ٢٠)، (**وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**) (القيامة: ٢٨).

(انظر كتابنا: النص القرآني ومعايير الفصاحة، ص ٧٨ : ٧٩)

الفعل [شهد]:

الشهادة هي أن يخبر بما رأى وأن يقر بما علم، (**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**) (الأحقاف: ١٠)، (**قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا**) (الأنعام: ١٣٠)، (**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**) (الأعراف: ١٧٢).

ولكن ورد هذا الفعل في القرآن في سياقات تقضي بأن يكون معناها مخالفًا لهذا المعنى المستقر عليه في المعاجم والمتفق عليه من قِبل الجماعة اللغوية، كأن يأتي بمعنى (حكم) كقوله: (**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**) (يوسف: ٢٦) فما نطق به هذا الشاهد هو بمثابة حكم وفصل في الأمر لأنه لم يشاهد شيئًا وعليه لم يشهد على شيء لأن امرأة العزيز غلقت الأبواب قبل فعلتها فلم يشاهدها أحد فهذا الشاهد قضى وحكم لا غير، وهذا معنى يفرضه السياق.

وقد يحتم السياق أن يكون معنى الفعل: المشاورة أو الحضور كقوله تعالى: (**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ**) (النمل: ٣٢)، فالأقرب أنها تريد أن تقول: لا أقطع بأمر ولا أتخذ قرارًا إلا بعد مشورتكم، وهو ترسيخ لمبدأ الشورى لهذه الدولة ألف سنة قبل الميلاد، أو بعد حضوركم واطلاعكم على الأمور فليست هي الشهادة التي تعني الإقرار أو القسم كما نعلم.

وقد يرد الفعل بمعنى العلم كقوله (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**) (آل عمران: ٧٠) أي وأنتم تعلمون وتوقنون، قال تعالى: (**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**) (آل عمران: ١٨)

جاء في اللسان: كل ما كان (شهد الله) فإنه بمعنى (علم الله)، وقال ابن الأعرابي معناه (قال الله) ويكون معناه (علم الله): (كتب الله)، وقال ابن الأنباري: معناه (بيّن الله أن لا إله إلا هو)، قال أبو عبيدة: معناه (قضى الله).

ولو كان معنى الشهادة في الآية هو ذلك المعنى المعروف المنصوص عليه في المعاجم ما تعددت الآراء والأقوال في بيان المقصود من هذا الفعل وكأن هذا الفعل وهذا التفسير يحكمه السياق الذي ورد فيه ويكون هذا المعنى الذي يورده كل عالم خاصًا ومقصورًا على هذه الآية ولا يتعداها.

الفعل: يئس:

هو فقد الأمل وانقطاع الرجاء والقنوط، يقال: يئس واستيأس، مثل: عجب واستعجب وسخر واستسخر، ورد هذا الفعل في القرآن في مواضع كثيرة ولم يخرج عن المعنى المتعارف عليه نحو قوله تعالى: (**إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّـهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) (يوسف: ٨٧)، (**أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي**) (العنكبوت: ٢٣)، ولكن ورد هذا الفعل في موضع يصعب معه أن يكون معناه كذلك أي هذا المعنى المعجمي والصرفي لهذا الفعل وذلك قوله: (**أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّـهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**) (الرعد: ٣١) فما معنى هذا الفعل في هذا الموضع، وهل مطلوب أن ييأس المؤمنون من هذا الأمر؟ إذن الفعل هنا يبدو غريبًا ويحتاج إلى التأويل ليتجاوز المعنى الحرفي الذي يدل عليه حتى إنهم

قالوا: إن الكاتب كتبها وهو ناعس وهو قول غير مقبول ربما فرضه غرابة الفعل في هذا السياق وقد قرأ عليّ وابن عباس وجماعة: أفلم يتبين، ويبدو أن القراءة كانت لإماطة اللثام عن هذا الفعل وإلا فالاختلاف الهجائي بين الفعلين (ييأس ويتبين) واضح بخلاف القراءة الأخرى (فتبينوا) من سورة الحجرات حيث قرئت (فتثبتوا) وليس بينهما اختلاف من جهة الحروف إلا في النقط، فقالوا: الفعل بمعنى (يتبين) على لغة جرهم، وهذا كلام عجيب؛ إذ ما معنى أن يكون (يئس) بمعنى (تبين) عند هذه القبيلة وترد في القرآن على هذا النحو البعيد؟ قال ابن عباس: التقدير: (أفلم يعلم) فمعناه الظاهر مستبعد.

الفعل (قضى):

(**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) (الإسراء: ٢٣) تطرح الآية سؤالًا مؤداه: كيف يكون الله قضى بشيء ثم يحدث خلافه من معظم العباد؟ فالمعنى المعروف من القضاء هو الذي يتحتم فعله ولا يجوز مخالفته؛ وقد أشار الأصفهاني إلى أن معنى هذا الفعل يختلف باختلاف السياق الذي يرد فيه فهو في الآية بمعنى (أمر) وفي آية أخرى بمعنى (خلق) كقوله: (**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**) (فصلت: ١٢)، وبمعنى (الحكم) كقوله: (**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ**) (طه: ٧٢)، وبمعنى (فُرغ وتم) كقوله (**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) (يوسف: ٤٤)، وبمعنى (أدّى) نحو: قضى الصلاة وقضى الحج وقضى

الدين، ويقال: قضى فلان أي: مات، وضربه فقضى عليه: قتله (**فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**) (القصص: ١٥).

الفعل (جعل):

يأتي (جعل) بمعنى: (فعل، وصنع، وأنشأ، وخلق، وطفق) على مثال سابق، وبمعنى التصيير والتحويل، وكلها معانٍ متقاربة ومقبولة، ولكن ورد في القرآن في سياقات يمتنع معها شيء من هذه المعاني نحو: (**وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**) (الزخرف: ١٩)، وفي ضوء هذه المعاني المعروفة عن هذا الفعل وتحديدًا ما تحمل من معنى التصيير والتحويل يفهم أن المقصود أن الملائكة صارت إناثًا بالفعل لمجرد ادعاء هؤلاء؛ لذا اضطروا أن يقولوا الفعل هنا بمعنى: (قالوا، حكموا، سموا، ادعوا، زعموا) فالمعنى لا يتسم بالثبات في مثل هذه التراكيب القرآنية بل يتحول ويتغير بحسب ما يفرضه السياق، ومنه في القرآن: (**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا**) (الأنعام: ١٣٦)، (**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**) (الحجر: ٩١)، أي جعلوا القرآن أجزاءً حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض، فالقرآن لن يصير (عضين) بمجرد زعمهم وادعائهم ولكن وصفوه بذلك، ومنه: (**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ**) (النحل: ٥٨).

ولا يصلح أن يكون هذا الفعل (جعل) بمعنى: القول في غير القرآن فهو استعمال قرآني خاص لا تعرفه العربية في عصور الاحتجاج ولا العربية المعاصرة، فلا نستطيع في الفصحى المعاصرة أن نستخدم

هذا الفعل بهذا المعنى غير الشائع احتجاجًا باستعمال القرآن وتوسعًا في استخدام مثل هذه الكلمات التي تخرج عن معناها المتفق عليه في المعاجم والذي يؤيده الاستعمال.

ذكر الراغب أن هذا الفعل يتصرف في القرآن على خمسة أوجه: فيأتي بمعنى: أوجد (**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**) (الأنعام: ١)، (**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ**) (الملك: ٢٣)، وفي تصيير الشيء على حالة دون حالة (**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) (الزخرف: ٣) ... إلخ.

ثالثًا- الحروف:

المتأمل لمنظومة حروف المعاني في القرآن إجمالًا يلاحظ مع شيء من التدقيق أن النص القرآني يتعامل مع هذه المنظومة على نحو أقرب إلى التلقائية والعفوية سواءً كانت حروف الجر وهي الأكثر شيوعًا أو حروف العطف والنفي وغيره، فكل حرف يصلح في القرآن أن يتعلق بأي فعل وكل فعل يتعدى لأي حرف دون التزام صارم على نحو ما تفرضه اللغة والاستعمال، فاضطروا أن ينشئوا درسًا يسمى بتناوب الحروف أو تعاقب الحروف، وجعله ابن جني من باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض، وهو عندي يدخل في نطاق عدم ثبات الكلمة القرآنية وتغير معناها حسبما يحتمه السياق.

فمثلًا الفعل "رفث" ويعني: أفضى وجامع يتعدى بالباء فيقال: رفث الرجل بالمرأة ولكنه في الآية الكريمة تعدى بحرف الجر (إلى) على غير المعهودة من كلام العرب وذلك في قوله تعالى: (**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ**

الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) (البقرة: ١٨٧) أي تعلق وارتبط بحرف ليس من لوازمه، فكما لا يصح أن يقال: كتبت إلى القلم لا يصح كذلك: رفثت إلى المرأة، فاضطر علماء العربية إلى القول بأن هذا نوع من التضمين، ويعرّفه ابن هشام: بأنه الذي يتشرب فيه فعل معنى فعل آخر ومنه في القرآن كذلك قوله: (**وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ**) (البقرة: ١٤) أي: انصرفوا وذهبوا لأن الفعل (خلا) يتعدى كذلك بالباء، ونحو: (**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا**) (التوبة: ٣٥) أي يوقد لأنك تقول: أحميت الحديدة في النار، فلما كان (الرفث) يعني الإفضاء الذي يتعدى بدوره بحرف الجر (إلى) جاء هذا الفعل (رفث) متعديًا بـ (إلى) وذلك قوله: (**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**) (النساء: ٢١).

ونظرًا لشيوع هذه الظاهرة في القرآن وتفشيها بشكل لافت أفردوا لها مؤلفات خاصة يأتي في مقدمتها: مغني اللبيب لابن هشام، ورصف المباني للمالقي، والأزهية للهروي، فالباء عند ابن هشام ترد في القرآن على ثلاثة عشر معنى، وإن كان أصل استعمالها للإلصاق، وهذا ما يتمسك به البصريون ويرفضون القول بتناوب حروف المعاني؛ لأن الحرف وضع لمعنى لا يجب أن يخرج عنه مهما أمكن، فلجأوا إلى التأويل والتقدير.

فقد فرض الاستعمال القرآني وحتم السياق أن تخرج الباء عن معناها الأصلي الذي وضعت له إلى معانٍ أخرى كأن تكون للتعدية (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**) (البقرة: ٢٠)، وأن تكون

للمقابلة والعِوَض (**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**) (البقرة: ٨٦)، وأن تأتي بمعنى (عن) (**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**) (الفرقان: ٥٦)، (**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**) (المعارج: ١)، وهو استعمال لا نعرفه إلا في النصوص القرآنية، وتأتي بمعنى (من) (**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**) (المطففين: ٢٨) أي: منها، وإنما أحوج السياق إلى ذلك، (**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ**) (الإنسان: ٦)، وبمعنى (على) (**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ**) (آل عمران: ٧٥) ... إلخ.

وما ينسحب على الباء ينسحب على بقية حروف الجر سواءً بسواء، فاللام مثلًا تتعدد معانيها حسبما يقتضي السياق ويحتم التركيب بعيدًا عن وظيفتها الأساسية التي وضعت لها من معنى الاختصاص والملكية فتأتي بمعنى: (إلى)، وبمعنى (عن) وبمعنى (على)، وبمعنى (عند)، و(بعد) ... إلخ، فلا يستقر هذا الحرف وغيره على حال داخل السياق القرآني.

ولا يقتصر الأمر على حروف الجر بل ينسحب على بقية حروف المعاني كحروف العطف مثلًا تتبادل هي كذلك بدورها الوظائف فتأتي الواو بمعنى الفاء أو ثم أو العكس ولكل من هذه الحروف معنًى خاص يميزها بعضها عن بعض فـ (ثم) للتراخي و(الفاء) للسرعة و(الواو) للجمع والترتيب، فلا يلتزم بشيء من ذلك في كثير من المواضع القرآنية.

الخاتمة

أردنا من هذا البحث إثبات أن الكلمة القرآنية تتسم في بعض الأحيان بعدم ثبات معناها، بل يتحول ويتغير حسبما يحتم السياق، ويلزم التركيب خلافًا للمعهود معجميًا من أن اللفظة وضعت لمعنى لا تخرج عنه لئلا تلتبس المعاني، وهذه الظاهرة تنسحب على أقسام الكلمة العربية اسمًا وفعلًا وحرفًا كما نوه البحث.